تاريخ البيمارستانات

فى العهد الاسلامى

بقلم الدكتور احمد بك عيسى

— ٥ —

الاجازة الطبية أى « الشهادة باصطلاح العصر »

الاجازة اسم مصدر من أجاز له ، أى سوغ له ذلك ، و يطلق عليها اليوم لفظ شهادة، متى أتم طالب الطب دروسه يتقدم إلى رئيس الأطباء فى القطر المصرى ـ ووظيفته هى أكبر وظائف الأطباء — و يطلب اليه إجازته فى تعاني صناعتـه ، وكان الطالب يتقدم اليه برسالة (Thèse) فى الفن الذى يريد الحصول على الاجازة فيـه ، تكون لأحـد مشاهير الاطبـاء المتقدمين أو المعاصرين ، و يكون قد أجاد دراستها ، فيمتحنه فيها و يسأله فى كل ما يتعلق بها من الفن ، فاذا أحسن الاجابة أجازه الممتحن بما يطلق له التصرف فيه من الصناعة . ومن محاسن الصدف أنى عثرت فى دشت قديم ، فى مكتبة أستاذنا العلامة الفاضل أحمد زكى باشا عن إجازتين فى الطب أعطيتا فى القرن السادس عشر للميلاد : إحداهما لفصاد والثانية لجراح ، أنقلهما هنا كى يعرف القارىء كيف كانوا يجيزون للأطباء معاناة صناعتهم وهما : —

الاجازة الأولى وهى من القرن الحادى عشر الهجرى.

« هذه صورة ما كتبه الشيخ الأجل ، عمدة الأطباء ومنهاج الألباء ، الشيخ شهاب الدين ابن الصائغ الحنفى (١) رئيس الأطبـاء بالديار المصرية ، إجازة للشاب المحصل محمـد عزام ،

---

(١) هو أحمد بن سراج الدين ، الملقب شهاب الدين ، المعروف بابن الصـائغ الحنفى المصري ، الشيخ الطبيب الفاضل . أخذ العلوم من الشيخ الامام على بن غانم المقدسى ، والامام الفهامة محمد بن محي الدين ناصر الدين التحريرى، وولده الرئيس الشـهير سري الدين، وبه انتفع فى الطب ، وتولى قديما تدريس الحنفية بالمدرسة البرقوقية ، ومات عن مشيخة الطب بدار الشفا المنصورى (قلاوون الآن) ورياسة الاطباء . قال الشيخ مدين : وكانت ولادته كما أخبرنا به فى سنة ٩٤٥هـ — ١٥٣٨ م وتوفى فى ربيع الاول سنة ١٠٣٦ هـ — ١٦٢٦ م ودفن خارج باب النصر ، ولم يعقب الا بنتا وتولت مكانه مشيخة الطب . (صحيفة ٢٣٠ خلاصة الاثر فى أعيان القرن الحادى عشر . ج ١)

أحد تلامذة الشيخ الأجل والكهف الاحول ، الشيخ زين الدين عبد المعطى رئيس الجراحين ، على حفظه لرسالة الفصد كما سنبينه »

« الحمد لله ومنه أستمد العناية .

الحمد لله الذى وفق من عباده من اختاره لخدمة الفقراء والصالحين، وهدى من شاء للطريق القويم والنهج المستقيم على ممر الاوقات والازمان إلى يوم الدين .

و بعد فقد حضر عندى الشاب المحصل ، شمس الدين محمد عزام بن ... بن ... (هنا كلمات مفقودة) على المؤذن الجروانى المتشرف بخدمة الجراح ، والمتقيد بخدمة الشيخ الصالح ، بقية السلف الصالحين العارفين ، وشيخ طائفة الجراحين بالمارستان المنصورى ، هو الشيخ عبد المعطى الشهير بابن رسلان ، نفعنا الله ببركاته، ورحم أسلافه العارفين الصالحين ، وعرض على جميع الرسالة اللطيفة ، المشتملة على معرفة الفصد وأوقاته وكيفيته وشروطه ، وما يترتب عليه من المنافع المنسوبة ، الرسالة المذكورة للشيخ الامام العلامة التمام شمس الدين محمد بن ساعد الانصارى (١) شكر الله سعيه ورحمه وأسكنه فسايح جناته بمنه وكرمه ـ عرضاً جيداً دلى على حسن حفظه للرسالة المذكورة ، وقد أجزته أن يرويها عنى بحق روايتها وغيرها من الكتب الطبية » (هذا آخر ما عثرت عليه و باقى الاجازة ضاع مع ما ضاع من نفائس الكتب)

الاجازة الثانية وهى كذلك من القرن الحادى عشر الهجرى، وهى صادرة من رئيس الجراحين بدار الشفا المنصورى بمصر (مستشفى قلاوون) :

« صورة ما كتبه الفقير على ذلك :

بسم الله الرحمن الرحيم

من ممد الكون أستمد العون ، الحمد لله الذى جعل لهذه الأمة بالطب المحمدى شفاء ، وداوى علل أفهامهم بصحيح حديثه بعد ما كانوا من سقم الباطل على شفا ، أحمده حمداً يتقوى به الضعيف ، وأشكره شكراً وافياً يكون لنا نعم العلاج عند الحكيم اللطيف ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الذي جعل الفصد والحجامة للأبدان من أنفع العلاج ، إذ بهما . . . تقف (٢) الحرارة الردية والمزاج ، ونشهد أن محمداً عبده و رسوله ، الذى قطع عرق الاشتراك ، وعلى آله وأصحابه السادة النساك ، الذين جمعوا بالعلم والفصاحة بين الحكمة وفصل الخطاب ، وعالجوا زمان الجهل بحسن تدبيرهم ، فعوفى وحفظ لهم الصحة وطاب »

« و بعد فقد وقفت على هذه الرسالة العظيمة ، والمقالة الكريمة الموسومة « ببرء الآلام فى صناعة الفصد والحجام » نظم لوذعى زمانه ، ألمعى عصره وأوانه ، الشمس شمس الدين محمد،

---

(١) واسم الرسالة : نهاية القصد فى صناعة الفصد ، وموجود منها نسخة مخطوطة بدار الكتب .

(٢) أول الكلمة ضائع

القيم شهرة ، الجراح صنعة ومهرة . التى أصلها للشيخ الفاضل حاوى الفضائل ، الشيخ شمس الدين محمد الشريبنى الجراح ، لا زالت شآبيب الرحمة والرضوان على قبره غادية رائحة ، وشذا العبهرى والريحان من مرقده فائحة ، الموسومة « بغاية المقاصد فيما يجب على المقصود والقاصد » إذ هي فى هذا الفن أسنى المقاصد ، وقد قرأها عليه قراءة إتقان وإمعان ، وحل لمشكلات الألفاظ والمعان ، فلم ير بدا من أن يبسطها ليتيسر حفظ تلك الفوائد ، ولتسهيل ضبط تلك القواعد ، فجاءت بجملة أبهى من نور الأنحار ، وأضوأ من نور الأسحار ، كالتبر المذهب ، أو القطر المذهب ، قد أجاد ناظمها فى تحقيقها ، وبذل الجهد فى تحريرها وتدقيقها وانتقى ألفاظ مبانيها ، وغاص بحار معانيها ، واستخرج الدر الثمين من أصلها ، وجمع بين فصلها ووصلها ، وصارت تجلى كالعروس لمعانيها ، ولقد صارت في هذه الصناعة العمدة والكفاية ، واعترف لها الكامل أنها المنهاج والهداية ، ونسيت بها التذكرة المفيدة ، ولم يبق لهذا العلم ذخيرة حميدة ، وأحجم عندها كل مهذب بالمكنون ، وصرح تاريخ الأطباء أنها نص ما فى القانون ، فلما ظهرت نتيجة الانتخاب فى المسألة والجواب ، وتغدى ناظم سلكها بالخاص من اللباب ، وصارت الخناصر عليها تعقد ، وإن كان لساعد الانصارى رسالة (١) فشتان بين رسالته ورسالة محمد ، وكانت عين المقصود ، ورقمت فيما يجب على القاصد والمقصود ، استحق راقم وشيها وناسج بردها أن يتوج بتاج الاجازة ، فاستخرت الله تعالى وأجزت له أن يتعاطى من صناعة الجراح ما أتقن معرفته ، ليحصل له النجاح والفلاح ، وهو أن يعالج الجراحات التى تبرأ بالبط ، ويقلع من السنان ما ظهر له من غير شرط ، وأن يفصد من الاوردة ، ويبتر الشرايين ، وأن يقلع من الأسنان الفاسدة المسوسين ، وأن يلم ما بعد من تفرق الاتصال بقطان ، وغير ذلك وطهارة الأطفال هذا مراجعته وخدمته لرؤساء هذا الفن المتبحرين ، والمهرة الأساتذة العارفين مع تقوى الله ، والنصح فى الصناعة ، ولا يخشى مع ذلك من كساد البضاعة ، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وإياه لصالح الأعمال في كل حال ومآل ، اللهم إنى أسألك من فضلك العظيم مغفرة لذنوبنا ، وعافية لأبداننا ، لا إله غيرك ولا مرجو إلا خيرك رب العالمين »

« رقمه بقلمه أقصر عباد الفتاح الفقير للحق ، على بن محمد بن محمد بن على الجراح ، خادم الفقراء الضعفاء بدار الشفاء بمصر المحروسة ، حامداً ومصلياً ومسلماً ومحبذا ومحوقلا ومستغفراً ، بتاريخ تاسع صفر الخير من شهور سنة إحدى عشر والف (١٦٠٢م) من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، والحمد لله وحده ».

---

(١) هو شمس الدين أبو عبدالله محمد بن ابراهيم بن ساعد الانصاري المعروف بابن الاكفانى المتوفى سنة ٧٤٩ والرسالة تسمى نهاية القصد فى صناعة الفصد ، وتوجد منها نسخة بخزانة الكتب الملكية .

امتحان الاطباء والصيادلة والتفتيش عليهم

لم يكن الأطباء أو الصيادلة متروكين وشأنهم ، يعملون ما يريدون دون رقيب ولا حسيب بل كانت عليهم الرقابة شديدة من الخلفاء و رئيس الأطباء فى الديار المصرية والمحتسب ، ومما يدل على يقظة الخلفاء فى مراقبة الأطباء والصيادلة ، نذكر ما يلى : قال سنان بن ثابت « لما كان فى عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م اتصل بالمقتدر أن غلطا جرى على رجل من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل ، فأمر الخليفة أبا ابراهيم بن محمد بن أبى بطيحة المحتسب ، بمنع سائر المتطببين من التصرف إلا من امتحنه سنان بن ثابت بن قرة ، وكتب له رقعة بخطه بما يطلق له التصرف فيه من الصناعة ، (وهذه الرقعة هى المعبر عنها فى أيامنا بالاجازة أو الشهادة) فصاروا إلى سنان ، وامتحنهم وأطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه ، و بلغ عددهم فى جانبى بغداد ثمانمائة رجل ونيف وستين رجلا ، سوى من استغنى عن محنته باشتهاره بالتقدم فى صناعته ، وسوى من كان فى خدمة السلطان .

ومن ظريف ما جرى فى امتحان الأطباء ، أنه أحضر إلى سنان رجل مليح البزة والهيئة ذو هيبة و وقار ، فأكرمه سنان على موجب منظره ، ورفعه وصار إذا جرى أمر التفت اليه ولم يزل كذلك حتى انقضى شغله فى ذلك اليوم ، ثم التفت اليه سنان فقال : قد اشتهيت أن أسمع من الشيخ شيئا أحفظه عنه ، وأن يذكر شيخه فى الصناعة ، فأخرج الشيخ من كمه قرطاسا فيه دنانير صالحة ، ووضعها بين يدى سنان وقال : ما أحسن أن أكتب ولا أقرأ ، ولا قرأت شيئاً جملة ، ولى عيال ومعاش دار دائرة ، وأسألك أن لا تقطعه عنى ، فضحك سنان وقال : على شريطة أنك لا تهجم على مريض بما لم تعلم ، ولا تشير بفصد ولا بدواء مسهل ، الا لما قرب من الأمراض . قال الشيخ : هذا مذهبى مذ كنت ، ما تعديت السكنجبين والجلاب ، وانصرف . فلما كان من غد أحضر اليه غلام شاب حسن البزة مليح الوجه ذكى ، فنظر اليه سنان وقال له : على من قرأت ؟ قال على أبى ، قال ومن أبوك ؟ قال الشيخ الذى كان عندك بالأمس ، قال : نعم الشيخ ، وأنت على مذهبه ؟ قال : نعم ، قال : لا تتجاوزه وانصرف مصاحباً .

وقد حكى عن أمين الدولة بن التلميذ : أن الخليفة المستضىء بأمر الله ، كان قد فوض اليه رآسة الطب ببغداد ، ولما اجتمع اليه سائر الاطباء ليرى ما عند كل واحد منهم من هذه الصناعة ، كان من جملة من حضره شيخ له هيبة ووقار وعنده سكينة ، فأكرمه امين الدولة ، وكانت لذلك الشيخ دربة ما بالمعالجة ، ولم يكن عنده من علم صناعة الطب الا التظاهر بها ، فلما انتهى الأمر اليه . قال له أمين الدولة : ما السبب فى كون الشيخ لم يشارك الجماعة فيما يبحثون فيه ، حتى نعلم ما عنده من هذه الصناعة ؟ فقال : ياسيدنا ! وهل شىء مما تكلموا

فيه إلا وأنا أعلمه ، وقد سبق الى فهمى أضعاف ذلك مرات كثيرة ! فقال له أمين الدولة : فعلى من كنت قد قرأت هذه الصناعة ؟ فقال الشيخ : ياسيدنا ، إذا صار الانسان الى هذه السن ، مايبقى يليق به إلا أن يسأل كم له من التلاميذ ، ومن هو المتميز فيهم ؟ وأما المشايخ الذين قرأت عليهم فقدماتوا من زمان طويل . فقال له أمين الدولة : ياشيخ ! هـذا شيء قد جرت العادة به ولا يضر ذكره ، ومع هذا فما علينا ، أخبرنى أى شيء قد قرأته من الكتب الطبية ؟ (وكان قصد أمين الدولة أن يتحقق ماعنده) فقال سبحان الله العظيم ، صرنا الى حد مايسأل عنه الصبيان ، وأى شيء قد قرأته من الكتب ياسيدنا ؟! لمثلى مايقال إلا أى شيء صنفته فى صناعة الطب ، وكم لك فيها من الكتب والمقالات ؟ ولابد أننى أعرفك بنفسى . ثم إنه نهض الي أمين الدولة ، ودنا منه وقعد عنده ، وقال له (فيما بينهما) : ياسيدى اعلم أنى قد شخت ، وأنا أوسم بهذه الصناعة ، وما عندى منها إلا معرفة اصطلاحات مشهورة فى المداواة ، وعمرى كله أتكسب بها وعندى عائلة ، فسألتك بالله ياسيدنا مشى حالى ، ولا تفضحنى بين هؤلاء الجماعة . فقال له أمين الدولة : على شريطة ، وهى انك لاتهجم على مريض بما لاتعلمه ، ولا تشير بفصد ولا بدواء مسهل الا لما قرب من الامراض . فقال له الشيخ : هـذا مذهبى مذ كنت ، ماتعديت السكنجبين والجلاب . ثم إن أمين الدولة قال له معلنا والجماعة تسمع : ياشيخ اعذرنا فاننا ماكنا نعرفك ، والآن فقد عرفناك ، استمر فيما أنت فيه ، فان أحداً ما يعارضك . ثم إنه عاد بعد ذلك فيما هو فيه مع الجماعة ، وقال لبعضهم : على من قرأت هذه الصناعة ؟ وشرع فى امتحانه . فقال له : ياسيدنا أنا من تلامذة هذا الشيخ الذى قد عرفته ، وعليه قد كنت قرأت صناعة الطب ، ففطن أمين الدولة بما أراد من التعريض بقوله وتبسم ، ثم امتحنه بعد ذلك ؟

احمد عيسى

الابحاث

نوع جديد فى عالم الصحافة

مجلة علمية أدبية تكتب بأسلوب حديث وأقلام حرة
يحررها لفيف من خريجى الجامعة المثقفين .

تصدر قريبا

لاتنس أنه مشروع مصرى بحت